

# سُورَةُ النَّجْمِ

مِنْ أَفَقِ الْوَحْيِ إِلَى سَجْدَةِ الْمَصِيرِ

2

تَأْلِيف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

## سُورَةُ النَّجْمِ

مِنْ أَفْقِ الْوَحْيِ إِلَى سَجْدَةِ الْمَصِيرِ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

حين يبدأ الطريق من السماء وينتهي عند موضع السجود ليست سورة النجم حديثاً عن نجم يقطع وحشة السماء ثم يأفل، وليست استعادةً لمشهد غيبي عظيم وقف فيه رسول الله ﷺ عند تخوم من الملكوت لا تبلغها أبصار البشر، وليست كذلك بياناً منفصلاً عن بطلان أصنام ذهبت أسماؤها وبقيت آثار الغفلة التي صنعتها، وإنما هي رحلة كاملة في تكوين اليقين داخل الإنسان، تبدأ من السؤال عن مصدر الحقيقة، ثم تعبر بالقلب خلال جلال الوحي وصدق الرسول ﷺ ومشاهد الآيات الكبرى، ثم تعيده من آفاق السماء إلى ميدان المسؤولية في الأرض، حتى يكتشف أن الذي رأى من آيات ربه الكبرى قد جاء ليخبره أن حياته ليست لحظة سائبة بين ميلاد وموت، بل سعي محفوظ، وأن خطاه مهما خفيت سوف تُرى، وأن وجوده مهما تشعب لا بد أن ينتهي إلى الله، وأنه لا جواب يليق بهذه المعرفة كلها إلا أن يسجد ويعبد.

إنها سورة تتشيل الإنسان من سطوة الظن لتضعه تحت نور الوحي، ومن عبادة الأسماء إلى معرفة المسمى الحق، ومن الركون إلى الأمانى إلى صدق السعي، ومن الاغترار بالدنيا إلى استحضار الآخرة، ومن التزكية المتعالية للنفس إلى معرفتها في ضعفها الأول؛ يوم كانت جنيئاً مستوراً في رحم أمها لا تملك لنفسها ثمناً ولا حياة. وفي كل انتقال من هذه الانتقالات تهدم السورة في داخلنا طبقةً من الوهم؛ فليس كل ما توارثته الأجيال حقيقة، ولا كل ما سمّاه الناس موجوداً، ولا كل ما تمتته النفس مستحقاً، ولا كل ما يلع في السماء رباً، ولا كل ما علا في الأرض خالداً، ولا كل ما خفي عن أعين البشر ضائعاً؛ لأن فوق الظن علماً، وفوق الهوى وحيّاً، وفوق الدنيا آخرة، وفوق السعي ميزاناً، وفوق الخليفة رباً إليه المنتهى.

وقد افتتحت السورة بالقسم بالنجم في لحظة هوّيه، فكأنها تريد منذ لفظتها الأولى أن تزعزع في النفس ثقتها بكل علو زائل؛ فالنجم الذي ترفعه العين في أعالي السماء خاضع لربه، يجري بقدره ويهوي بأمره، وكل ما سوى الله، مهما بدا مرتفعاً أو مضيئاً أو مهيّباً، محكوم عليه بالافتقار والأفول. وفي مقابل هذا النجم الهاوي يثبت الله صدق رسوله ﷺ، فينفي عنه الضلال في المعرفة والغواية في القصد، ثم يرفع الستار عن مصدر ما جاء به: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾. ومن هنا تبدأ المعركة الحقيقية

في السورة، وهي معركة لا تنحصر في مكة ولا في مواجهة أصنام اللات والعزى ومناة، بل تمتد إلى قلب كل إنسان: أيقودك الوحي أم يقودك الهوى؟ أثبتت الحقيقة كما أنزلها الله، أم تعيد تشكيلها حتى توافق ما تشتهي؟ أتخضع لها حين تخالفك، أم لا تعترف منها إلا بما يمنح رغبتك اسماً مقدساً؟

وفي قلب الرحلة يطل مشهد الرؤية العظيمة؛ جبريل عليه السلام في الأفق الأعلى، والدنو الذي أحاطه القرآن بجلال الإيجاز، وسدرة المنتهى عند جنة المأوى، وما يغشى السدرة مما أبقى الوحي سره في حمى الغيب، ثم ذلك البصر النبوي المؤدب الذي ﴿مَا زَاغَ﴾ فلم يخرف، و﴿مَا طَغَى﴾ فلم يتجاوز ما أذن له فيه. وليس المقصود أن نطل مأخوذتين بعيد المشهد وجماله وحدهما، بل أن نتعلم منه أخلاق الرؤية؛ فالحقيقة لا تتكشف للقلب الذي يزغ حين يراها، ولا للعين التي تطغى فتدعي فوق ما علمت، وإنما تتكشف لمن يجمع صفاء التلقي إلى أدب العبودية، ويرى الآيات فلا تحجبه الآيات عن ربها، ويفتح له من المعرفة فلا يحول المعرفة إلى تعظيم لنفسه. ولذلك لم يكن أشرف وصف للرسول ﷺ في ذلك المقام أنه بلغ ما لم يبلغه بشر، بل أنه عبد تلقى عن ربه؛ فالعبودية ليست منزلة دون المعراج، وإنما هي سر المعراج، وليست قيداً يخفض الإنسان، وإنما هي الجناح الذي يرفعه الله به.

ثم لا تتركنا السورة عند سدرة المنتهى، مأخوذتين بضياء الملكوت، بل تعيدنا سريعاً إلى أرض الإنسان، إلى الأصنام حين تصنعها الأسماء، وإلى العقائد حين يصنعها الظن، وإلى النفس حين تتخذ من هواها مصدراً للمعرفة، وإلى الإنسان حين يظن أن له ما تمنى، ويبحث عن نجاة لا يسبقها سعي، وعن شفاعة لا يأذن بها الله، وعن آخرة تصاغ على مقاس أمانيه. وهنا نكتشف أن المسافة بين سدرة المنتهى واللات والعزى ليست مسافة مكانية فحسب، بل هي المسافة بين معرفة أصلها الوحي ووهم أصله الهوى، وبين قلب تلقى عن الله ونفس سمت رغبتها حقيقة ثم عبدتها. وإذا كانت أصنام العرب قد كانت أجزاً ظاهرة، فإن أصنام الإنسان المتأخر قد تكون أكثر خفاءً؛ فقد تكون فكرة لا يقبل مساءلتها، أو ذاتاً لا يحتمل نقدها، أو دنيا لا يريد وراءها شيئاً، أو جمهوراً يستمد منه قيمته، أو قوة يظن أنها تمنحه ما لا يملك من نفسه. ولذلك يبقى سؤال السورة حياً في كل عصر: ما الأسماء التي منحناها في أوهامنا سلطاناً لم ينزل الله بها من سلطان؟

وفي النصف الآخر من السورة تنفتح صفحة الإنسان ومسؤوليته؛ فلا تزر وازرةٌ وزر أخرى، وليس للإنسان إلا ما سعى، وسوف يرى سعيه ثم يجزاه الجزاء الأوفى. هنا يخرج

المرء من ضباب الجماعة ليقف وحده أمام عمله، فلا تحجبه أسماء الآباء، ولا أبحاد الأسلاف، ولا صلاح من يحب، ولا كثرة من يشبهونه، كما أنه لا يحمل ظلماً لم يكتسبه، ولا يؤخذ بجريرة لم يعملها. ويغدو السعي هو السيرة الحقيقية للإنسان؛ لا ما قاله عن نفسه، ولا الصورة التي رسمها في عين الناس، بل ما تحرك إليه قلبه، وما بذلته يداه، وما قاومه في سره، وما تركه الله حين لم يكن عليه من البشر شاهد. وفي التعبير بالسعي رحمة عظيمة؛ لأن الله لم يعلق قيمة الإنسان على النتائج التي قد تحول المقادير بينه وبينها، وإنما على صدق المسير وبذل الوسع، فقد يموت الزارع قبل أن يرى الثمرة، ولكن خطوته لا تضع، وقد يهزم المدافع عن الحق في ظاهر الأرض، ولكن سعيه لا يسقط من ميزان السماء.

وعند ذروة هذا البناء تأتي الكلمة التي تجمع أطراف الوجود كله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾. إنها ليست خبراً عن خاتمة الطريق فحسب، بل نور يعيد ترتيب الطريق من أوله؛ فما دام إلى الله المنتهى، فينبغي أن تكون إليه الوجهة، وما دام الوقوف بين يديه هو النهاية، فلا معنى لأن يبدد الإنسان عمره في طريق لا يجب أن يلقاه به. إليه تنتهي ضحكاتنا ودموعنا، وموتنا وحياتنا، وفقرنا وغنانا، وما ظهر من سعيانا وما استتر، وتنتهي الحضارات التي ظنت أنها باقية، والنجوم التي عبدها الغافلون، والأسماء التي زينها الوهم، والأمانيات التي لم يسندها عمل. فإذا استقرت هذه الحقيقة في القلب لم تعد الآخرة فصلاً بعيداً بعد الحياة، بل أصبحت حاضرة في كل اختيار؛ لأن كل خطوة تستمد معناها من الجهة التي تنتهي إليها.

ولهذا لا تُقرأ سورة النجم قراءة المتفرج الذي يتتبع مشاهد بعيدة عنه، بل قراءة من يشعر أن السورة تمسك قلبه بين آية وآية، وترفعه مرة ليرى الأفق الأعلى، وتعيده مرة ليفتش في أهوائه، وتوقفه مرة عند صحيفة سعيه، ثم تضعه أمام أمم أهلكتها طغيانها، حتى إذا امتلأ وعيه بالوحي والمصير، ولم يبق في داخله موضع لحجة أو مهرب من الحقيقة، جاءه الأمر الذي لا تحتاج الروح بعده إلى تفسير: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾. ومن هنا تبدأ رحلتنا في السورة؛ لا لنصف النجوم وحدها، بل لنكتشف ماذا ينبغي أن يحدث في القلب حين يرى النور، ولا نتحدث عن السجود بوصفه حركة يؤديها الجسد، بل لنعبر من أفق الوحي إلى الموضع الذي تنتهي عنده المعرفة الصادقة: جهة على الأرض، وقلب ارتفع إلى الله.

من النجم إذا هوى إلى الجبهة حين تسجد

تبدأ السورة والناظرُ مرفوعُ الرأس إلى السماء، وتنتهي السورة والجبهة موضوعةً على الأرض؛ وبين رفع البصر وخفض الجبين تمتدُّ رحلةُ الإنسان كلها: من البحث عن الحقيقة إلى التسليم لها، ومن الإصغاء إلى خبر السماء إلى السجود لربِّ السماء، ومن الوقوف مبهوراً أمام النجم إذا هوى إلى الوقوع خاشعاً بين يدي الله الذي إليه المنتهى. وكأنَّ سورة النجم لا تريد أن تمنحنا معرفةً تُحْمَل في الذهن وحده، بل تريد أن تعيد تشكيل هيئة الإنسان أمام الوجود؛ فتقيم بصره أولاً ليرى أن فوق هذا العالم وحياً يهديه، ثم تقيم ميزانه ليدرك أن حياته سعيٌ محسوب، ثم تقيم قلبه على حقيقة أن كل شيء ينتهي إلى الله، ثم لا تدع له بعد ذلك مخرجاً من السجود، لأن المعرفة التي لا تنتهي إلى عبادة لم تبلغ غايتها، والدهشة التي لا تضع الجبهة على التراب ليست إلا انفعالاً عابراً لم يمسَّ مركز الروح.

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾. لا تقسم السورة بالنجم وهو مستقرٌّ في علوه، بل تقسم به في لحظة الهوي، في الحركة التي يخدر فيها من الأفق، كأنها تفتح منذ اللفظة الأولى سؤالاً عن الأشياء حين تغادر مواقعها الظاهرة، وعن النور حين يطوي مسافته في السماء، وعن العظمة التي لا يمنعها علوها من الخضوع للقانون الذي قدره الله لها. إنَّ النجم، على ما يملأ العين من بهاء، ليس إلهاً ولا رباً ولا صاحبَ إرادةٍ مستقلة؛ إنما هو مخلوقٌ يجري ويطلع ويأفل ويهوي، وتلك أول ضربةٍ في السورة لوهم الإنسان القديم والمتجدد: وهم الانهار بالمضيء حتى عبادته، وبالقوي حتى تقديسه، وبالمرتفع حتى توهم عصمته. كل نجم يهوي، وكلُّ مجد أرضي يأفل، وكلُّ قوة لا تستمد بقاءها من الحق تنحدر يوماً من ألقها؛ أما الكلمة النازلة من عند الله فلا تهوي بمعنى السقوط، بل تنزل لتنهض بالإنسان من سقوطه، وتصل الأرض بالسماء، وتجعل في القلب نوراً لا تحجبه أفول النجوم.

وفي إثر القسم يأتي الجواب حاسماً، كأن السماء كلها تشهد للرجل الذي وقف وحيداً في مكة يحمل كلاماً أثقل من الجبال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾. لم يقل: ما ضلَّ محمد، بل قال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾، يوقظ فيهم تاريخاً كاملاً عاشوه معه، ويسألهم من وراء اللفظ:

أليس هذا الذي عرفتم صدقه قبل الرسالة؟ أليس ابن يثتكم، وصاحب أيامكم، ومن خبرتم أمانته وعقله ونقاء سيرته؟ فكيف ينقلب الصادق عندكم كاذباً لحظة جاءكم بما يخالف أهواءكم؟ إنهم لم يكونوا يجهلون أصحابهم، ولكنهم أرادوا أن ينجوا من مقتضى معرفتهم به، فالحق لا يتعب الإنسان لأنه غامض دائماً، بل لأنه إذا اتضح طالبه أن يغير موضعه، وأن يتنازل عن صنم أو مصلحة أو كبرياء. وهنا تنفي السورة عنه الضلال، وهو فقدان الطريق، وتنفي عنه الغواية، وهي فساد القصد مع معرفة الطريق؛ فلا هو جاهل بالحقيقة، ولا هو منحرف عنها، ولا هو تائه يحدث الناس عن ظنونه، بل هو مهدي في علمه، مستقيم في قصده، محفوظ في تبليغه.

ثم تبلغ البراءة مداها في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾. هنا يفصل بين كلامين يخرجان من فم الإنسان، ولكن بين منبعيهما من البعد ما بين الأرض والسماء: كلام يصنعه الهوى، فيلون الحقيقة بحسب الرغبة، ويختار منها ما يحجي الذات ويخدم المصلحة، وكلام يتلقاه الرسول وحياً فيبلغه ولو حمله أثقال المواجهة، ولو عرّضه للأذى، ولو عاتبه في بعض اجتباهه، ولو نقض موازين قومه وأقرب الناس إليه. والهوى ليس مجرد شهوة ظاهرة، بل هو كل ميل خفي يجعل الإنسان يريد من الحقيقة أن توافقه بدل أن يوافقها، وكل رغبة في أن يكون الدين صدق للنفس لا حكماً عليها، وأن يكون الوحي شاهداً لنا لا شاهداً علينا. ولذلك جاءت السورة لاحقاً لتحطم أصنام المشركين، ثم تعود فتحطم الصنم الأشد خفاءً بقولها: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾؛ فكان المعركة في جوهرها ليست بين حجر وإنسان، بل بين الوحي والهوى، بين معرفة نازلة من العليم وبين ظنون تصعد من رغبات النفوس.

ولأنّ الوحي ليس خاطراً غائماً ولا انفعالاً نفسياً ولا ومضةً صنعها الخيال، تكشف السورة عن جلال التلقي: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۖ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۖ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۖ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۖ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾. إنها ألفاظ قليلة، لكنها تفتح وراءها مشهداً لا تكاد الخيلة البشرية تطيق سعته: جبريل، شديد القوى، في هيئته التي خلقه الله عليها، يستوي بالأفق الأعلى، ثم يكون الدنو الذي قدره الله، ويقع التلقي في مهابة يصونها الإيجاز، حتى إن القرآن لا يفصل مضمون تلك اللحظة بل يلفها بجلال الكتمان: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾. وما أجمل أن يذكر

النبي ﷺ في ذروة هذا المقام باسم العبودية؛ ففي الليلة التي عرج فيها إلى السماوات، ورأى من آيات ربه الكبرى، لم يكن أشرف أوصافه أنه تجاوز آفاق البشر، بل أنه عبد لله. وكأنَّ الطريق إلى أعلى المقامات لا يمرُّ من ادعاء العظمة، بل من كمال العبودية؛ فكما انخفض الإنسان لله ارتفع به، وكما تَخَلَّى عن رؤية نفسه أراه الله من آياته، وكما تحرر من تأليه ذاته اتسع قلبه لتلقي النور.

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ أَفْتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى. هنا تتلاقى منافذ المعرفة في الإنسان: العين ترى، والفؤاد يصدِّق، والوعي حاضرٌ لا يختلط عليه المشهد. ليست الرؤية خدعةً بصر، وليس الفؤاد منشئاً لصورةٍ يتوهمها، بل ثمة توافقٌ كامل بين الخارج والداخل، بين ما وقع للبصر وما استيقنه القلب. وأكثر المفسرين على أن النبي ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، وراه نزلةً أخرى عند سدره المنتهى، وأما الله سبحانه فلا تحيط به الأبصار، وليس كمثله شيء. إن السورة لا تفتح باب التخيل في شأن الغيب، بل تفتح باب اليقين بآيات الله؛ ولهذا تنتقل من إثبات صدق الفؤاد إلى توبيخ المجادلين، لأن المراء هنا ليس طلباً صادقاً للدليل، بل محاولةً لإخضاع الشهادة الصادقة لعنادٍ قرر النتيجة قبل أن يسمع الخبر. وكم في حياة الإنسان من حقيقةٍ لا يحجبه عنها نقص البرهان، بل خوفه مما سيتغير فيه إذا اعترف بها.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى. نحن هنا عند حافة اللغة؛ عند مقامٍ تصل إليه العبارة فتشير ولا تستوعب، وتذكر ولا تكشف كلَّ المستور. سدره المنتهى: الاسم نفسه يحمل رهبة النهاية، كأن الموجودات تبلغ حدًّا تقف عنده، وكأن العلوم والمقامات والمسافات تنتهي إلى عتبةٍ لا تتجاوزها إلا بإذن الله. وعندها جنة المأوى؛ فبعد طول اغتراب الإنسان في الأرض، وبعد تقلُّبه بين المخاوف والشهوات، تذكِّره السورة بأن له مأوى ليس في التراب، وأن الروح التي أزعجها نقص العالم لم تُخلق لتأوي إليه إلى الأبد. ثم يغشى السدرة ما يغشى، ويختار القرآن هذا الإبهام المهيّب، لأن بعض الجمال يفسده التفصيل، وبعض الجلال لا يسعه الاسم، وبعض المشاهد لا يُبلغ سرُّها إلا بأن يُترك القلب أمام بابها خاشعاً.

وفي ذلك الموقف الذي يمكن أن تزغ فيه الأبصار من شدة ما ترى، يأتي الثناء بكلماتٍ موزونة كأنها تصف هندسة القلب النبوي: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾. لم يزغ، فلم يخرف عن موضعه، ولم يطغ، فلم يتجاوز حدّه. وبين الزغ والطغيان تنشأ أكثر أخطاء المعرفة الإنسانية: إما أن يعجز الناظر عن تثبيت بصره على الحقيقة فينصرف عنها، وإما أن يتجاوز ما أُذن له فيه فيدّعي ما لم يعلم. أما بصر النبوة فهو دَبُّ بنور الله؛ يرى فلا يضطرب، ويشهد فلا يفتن، ويُقرب فلا يتكبر، ويُعطى فلا يدّعي. وهكذا تعلّنا السورة أن صفاء الرؤية ليس في اتساع ما نراه فحسب، بل في أخلاق النظر أيضاً: أن لا نميل عن الحق، ولا نتجاوز حدود العلم، ولا نحولّ لمعةً من المعرفة إلى دعوى إحاطة. ثم تأتي الخلاصة: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾؛ رأى الآيات، ولم تتحول الآيات في قلبه إلى حجابٍ عن ربها، لأن القلب المهتدي يعبر من الجمال إلى المنعم، ومن العظمة إلى العظيم، ومن الأثر إلى المؤثر.

ومن ذلك الأفق الأعلى تهبط السورة فجأةً إلى أرض الأصنام: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾. يا للمفارقة بين جبريل عند الأفق الأعلى، وسدرة المنتهى، وجنة المأوى، وبين أحجارٍ منحها الخيال أسماءً ثم خضع لها! لقد رأى النبي ﷺ من آيات ربه الكبرى، أما هم فلم يروا في أصنامهم شيئاً، لكنهم أوروها الأسماء وكسوها بهيبة العادة، حتى صار الموروث عندهم أقوى من البصيرة. وهنا تتكشف صناعة الباطل: يبدأ اسماً، ثم يكره المجتمع، ثم تحيط به الطقوس، ثم تنشأ حوله المصالح، ثم يصبح السؤال عنه جريمة، مع أنه في أصله فراغٌ سَمَاهُ الناس. ولهذا تقول السورة: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾. إنَّ الاسم لا يخلق حقيقة، وشيوع القول لا يمنحه برهاناً، وقدم الفكرة لا يجعلها حياً، ووراثه الآباء لا تعني الأبناء من السؤال. كم من صنم حديثٍ لا يُنحت من حجر، بل من مصطلحٍ براق، أو زعيمٍ تحيط به الأساطير، أو فكرةٍ يكرها الناس حتى تبدو كأنها قانون الكون؛ وما هي عند الفحص إلا أسماء لم ينزل الله بها من سلطان.

ثم تكشف السورة العطب الأخلاقي في توزيعهم المزعوم للغيب: ﴿الْكُفْرُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾. كانوا ينسبون إلى الله ما يستكفون منه لأنفسهم، فيجتمع في عقيدتهم الشرك وسوء الأدب والتناقض. وليس الاستفهام هنا انتقاصاً من الأنثى،

وإنما فضح لمعارهم هم: كيف تجعلون لأنفسكم ما تفضلون، ثم تنسبون إلى الله، تعالى عن قولكم، ما تزدرون؟ إن الباطل قلماً يكون خطأً فكرياً مجرداً؛ إنه غالباً مرآة لأخلاق أصحابه، يظهر فيه تحيزهم لأنفسهم، واستعدادهم لأن يضغوا للسماء ميزاناً لا يرضونه لبيوتهم. وحين تفصل العقيدة عن سلطان الوحي، يصبح الإله صورةً ترسمها النفس بحسب نقصها، وتتحول العبادة من خضوعٍ للحق إلى تكبيرٍ خفيٍّ للذات.

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾. هذه الآية تضع تاريخ الضلال كله في كفتين: ظنٌّ لا يقوم على علم، وهوى لا يريد أن يقوم عليه سلطان. وإذا اجتمع ضعف المعرفة مع فساد الإرادة صار الإنسان قادراً على تصديق أعجب الأوهام، لا لأن الوهم قوي، بل لأنه يمنحه ما يجب. وقد جاءهم الهدى، فلم تكن مأساتهم في غياب النور، وإنما في إثارة ظلمات ألقوها عليه. وهنا يصير الهدى مسؤولية؛ فقبل مجيئه قد يعتذر الإنسان بجهله، أما بعد أن يطرق الحق بابه فلا يعود السؤال: هل عرفت؟ بل: ماذا فعلت بما عرفت؟ هل جعلت المعرفة قائدةً للهوى، أم جعلت الهوى قاضياً على المعرفة؟

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ۖ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾. ما أقصر العبارة، وما أوسع الخراب الذي تصلحه في النفس! الإنسان يتنى أن تكون الحقيقة على الصورة التي تريده، وأن تكون النجاة بلا ثمن، والجزاء بلا عمل، والشفاعة بلا إذن، والآخرة امتداداً لامتيازاته في الدنيا؛ غير أن الوجود لا يُبنى على أماني الإنسان. ليست الرغبة دليلاً، ولا شدة التعلق بالشيء ضماناً لحصوله، ولا حسن الظن بالنفس حكماً بالبراءة. لله الآخرة والأولى؛ فلا الماضي خرج عن ملكه، ولا المستقبل سيفلت من حكمه، ولا الحياة الأولى تُدار بعيداً عنه، ولا الدار الآخرة تُفتح بأوهام البشر. وإذا استقرت هذه الحقيقة في القلب تحرر من عبودية التني، وانتقل من سؤال: ماذا أحب أن يكون؟ إلى سؤال أشرف: ماذا يحب الله مني أن أكون؟

وحتى الملائكة، على طهارتهم وعلو مقامهم، لا يملكون من الشفاعة شيئاً استقلالاً: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾. فإذا كان الملك لا يتقدم بين يدي الله، فكيف بحجر؟ وإذا كانت الشفاعة نفسها خاضعة للإذن والرضا، فكيف يعلق الإنسان قلبه بمن لا يسمع ولا يبصر؟ إن

التوحيد لا يقطع عن الإنسان الرجاء، بل ينقيهِ من التعلق بالأبواب الوهمية، ليوجهه إلى الباب الذي لا يُغلق. إنه لا يترك القلب وحيداً، وإنما يرده إلى صاحبه الحقيقي؛ فلا يطلب النجاة ممن لا يملكها، ولا يوزع خوفه ورجاءه بين المخلوقات، بل يجمع شتات روجه عند الواحد.

ثم تعود السورة إلى جذر المعرفة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَىٰ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾. إن إنكار الآخرة لا يبقى رأياً في الزمن الآتي؛ إنه يفسد رؤية الإنسان للحاضر، لأنه إذا حذف الوقوف بين يدي الله من نهاية الطريق، اختلَّ معنى الطريق كله، وصار قادراً على الحديث عن الملائكة والغيب والمصير بغير علم. والظن قد يملأ المجالس، ويصنع تراثاً، وتقوم عليه مؤسسات، لكنه حين يقف أمام الحق لا يغني شيئاً؛ فالحق لا يُقاس بعدد المصدقين، بل بقوة سلطانه وبرهانه.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ. لم يقل: لم يعرف إلا الحياة الدنيا، بل قال: ﴿لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ فالمشكلة تبدأ من الإرادة قبل المعرفة. حين تضيق الإرادة بالدنيا يضيق العقل معها، وحين لا يريد الإنسان إلا العاجل تتحول أدواته الفكرية كلها إلى خدم لهذا العاجل، فيفسر الحق بما يحفظ لذته، ويقيس النجاح بما يقع تحت يده، ويرى الموت جداراً لأن قلبه لم يرد ما وراءه. ذلك مبلغهم من العلم؛ قد يعرفون دقائق المادة ومسافات النجوم، ولكن عليهم إذا لم يفتح نافذة على الغاية بقي محصوراً في السطح، يعرف كيف تتحرك الأشياء ولا يعرف إلى أين تمضي، ويحسب عمر النجم ولا يسأل عن معنى أن يقسم الله به، ويقرأ قوانين الجسد ثم يعجز عن فهم الأمانة التي استودعت فيه.

غير أن الله وحده يعلم من ضلَّ ويعلم من اهتدى؛ فلا يملك الداعية أن يفتح القلوب، ولا يجوز للمؤمن أن يغتر بهديته، ولا أن يجعل نفسه مالكا لمصائر الناس. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَىٰ﴾. كلمة ﴿رَبَّكَ﴾ هنا تفيض سكينَةً في قلب الرسول ﷺ الذي كلَّفك البلاغ هو الأعلم بمسالك الأرواح، فلا يحزنك إعراض من أعرض حتى يكاد يستهلك قلبك، ولا تحمل نفسك ما لم تُكَلَّف. أنت تُسمعهم الوحي، أما الهدى فسرُّ يجريه الله في القلب حين يعلم منه الصدق.

ثم تضع السورة ميزان الجزء في قلب الكون: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾. ما دام الملك كله لله، فلا تضع في ملكه حسنة، ولا تحتجب عن علمه سيئة، ولا يكون الظلم كلمة النهاية. إن الإيمان بالجزاء ليس هامشاً في العقيدة، بل هو الذي ينقذ الضمير من عبث العالم، فكم من محسن مضى ولم يأخذ من الأرض أجره، وكم من مظلوم مات قبل أن يرى إنصافه، وكم من مسيء عبر الحياة محاطاً بالتصفيق. لو كانت الدنيا آخر المطاف لتحول الوجود إلى حكاية مبتورة، ولكن لله الآخرة والأولى، ولذلك سيكتمل المعنى، وستصل كل نفس إلى ما قدّمت.

والذين أحسنوا ليسوا ملائكة لا يخطئون، بل بشرٌ وصفهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَارَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾. ما أرحم هذا الانتقال من دقة الحساب إلى سعة المغفرة! فالله يعلم ضعف الطين، ويعلم هبوب الخاطر، وعثرة الطريق، ولحظة الوهن، ولذلك لم يجعل النجاة لمن لم يزلّ قط، بل لمن لم يتخذ الكبائر وطناً، ولم يصلح الفاحشة، وكان إذا ألم بذنب عاد. واسعة مغفرته، أوسع من تاريخك الذي يثقل صدرك، وأوسع من خطيئتك حين تراها سداً بينك وبينه، ولكن هذه السعة لا تدعو إلى الجرأة على المعصية، بل إلى الجرأة على التوبة؛ فلا يقنط المذنب، ولا يأمن المصرّ، ويبقى القلب سائراً بين خوفٍ يطهره ورجاءٍ ينهض به.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾. كيف يزيّج الإنسان نفسه وهو لم يشهد بداية تكوينه؟ كان تراباً، ثم كان جنيناً مستوراً لا يملك لنفسه غذاءً ولا دفعاً، ثم خرج ضعيفاً، ومما بنعم لم يصنعها. إن من عرف أصله استحيا من غروره، ومن عرف ستر الله عليه لم يحول صلاحه إلى منصّة يدين منها الخلق. والتقوى ليست صورةً يعلنها الإنسان عن نفسه، بل حقيقةً يعلمها الله في المواضع التي لا يراه فيها أحد؛ في الخاطر الذي قاومه، والدمعة التي أخفاها، والذنب الذي تركه حين قدر عليه، والعمل الذي نسيه الناس ولم ينسه رب الناس. لذلك لا تزكوا أنفسكم؛ فربّ ممدوح عند الخلق بعيد، وربّ مجهول في الأرض معروف في السماء.

ثم تعرض السورة نموذج النفس التي أعطت قليلاً وأكدت، وانسحبت من الطريق كأنها عقدت مع الله صفقة محدودة: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿١٠٠﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿١٠١﴾﴾. ولفظة ﴿أَكْدَى﴾ ترسم ببلاغتها من يحفر حتى يبلغ الكدية، وهي الصخرة الصلبة، فيتوقف؛ غير أن الصخرة هنا ليست في الطريق، بل في الإرادة. يبدأ الإنسان أحياناً مستجيباً، ثم حين يطلبه الحق بما يمس محبوباته يتصلب قلبه، فيعطي من الطاعة ما لا يكلفه تغييراً، ويتوقف عند أول تضحية. وتسأله السورة: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿١٠٢﴾﴾؟ بأي علم ضمن السلامة بعد أن تولى؟ وبأي كتاب عرف أن القليل الذي قدم يكفيه؟ إن النفس حين تريد الفرار من التكليف تخترع لنفسها غيباً خاصاً، تطمئن فيه إلى النجاة بلا دليل.

ومن هنا تفتح السورة بتجل الوحي الممتد: ﴿أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿١٠٣﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿١٠٤﴾﴾. إن رسالة محمد ﷺ ليست صوتاً منفرداً في التاريخ، بل عودة للإنسان إلى الكلمة التي حملها الأنبياء: مسؤولية النفس، وعدل الجزاء، ووحدانية المصير. وإبراهيم الذي وفّى، يا لها من شهادة! وفّى حين واجه قومه، وحين هاجر، وحين أُلقي في النار، وحين أمر بما يزلزل قلب الأب، وحين رفع القواعد من البيت، فلم يكن إيمانه لحظة انبهار، بل وفاءً طويلاً عبر الامتحانات. الإيمان ليس ما تقوله النفس وهي آمنة فحسب، بل ما تنفي به حين تتغير الأسعار وتشتد التكليف.

ثم تأتي الصحف بقواعد كأنها أعمدة العدالة: ﴿أَلَا تَرَوْا وَازِرَةً وَرَزَّاءَةً أُخْرَى ﴿١٠٥﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿١٠٦﴾ وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى ﴿١٠٧﴾ ثُمَّ يُخْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ﴿١٠٨﴾﴾. لا تحمل نفس إثم نفس، ولا ينجو مذنب لأنه ألقى خطيئته على غيره، ولا يدان بريء بجريرة أبيه أو قبيلته أو جماعته. هنا يُسترد الإنسان من ذوبانه في الجموع، ويقف فرداً أمام الله، يحمل اختياره ولا يحمل ظلاً ما لم يكتسبه. ثم تأتي آية السعي، لا لتغلق أبواب فضل الله، فكلُّ نَجاةٍ برحمته، ولا لتنفي ما يصل إلى الإنسان مما شرعه الله من دعاءٍ ونفع، بل لتقتلع منه وهم الاتكال: ليس لك من جهة الاستحقاق إلا ما سعت، فلا تبني مصيرك على آمانيّ لم تمش إليها قدمائك، ولا على تاريخ أسرتك، ولا على صلاح من تحب، ولا على كلمات جميلة لم تتحول إلى عمل.

والعجيب أن السورة لم تقل: وأن ليس للإنسان إلا ما أنجز، بل قالت: ﴿إِلَّا مَا سَعَى﴾. فالنتائج ليست كلها في يدك، وقد تبذر ولا تدرك موسم الحصاد، وقد تنصر حقاً ثم تموت

قبل ظهوره، وقد تبني في قلب ولدك معنى لا يزهر إلا بعد رحيلك؛ لكن السعي محفوظ. إن الله لا يقيسك بما عجزت عنه بعد صدقك، بل بما تحركت إليه إرادتك، وما بذلته وسعك، وما قاومت به عجزك. ثم إن هذا السعي سوف يُرى؛ سيخرج من مخابئ النيات، ومن زوايا النسيان، ومن الأيام التي ظننت أنها مضت بلا شاهد، فيراه صاحبه ويراه الخلق بإذن الله، ثم يُجزأه الجزاء الأوفى. وليس أوفى فحسب، بل ﴿الْأَوْفَى﴾؛ لأن الله لا يخس دمعاً ولا خطوة ولا مقاومة خفية، ولأن خزائنه لا ينقصها العطاء.

وهنا تصل السورة إلى قلبها الجامع: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾. إلى ربك تنتهي المسافات كلها، لا إلى القبر، ولا إلى المجد، ولا إلى الهزيمة، ولا إلى أسماء الناس، ولا إلى ما جمع الإنسان وترك. كل طريقٍ مهما التوى ينتهي عنده، وكل سؤالٍ مهما تفرع يجد جوابه الأخير لديه، وكل حبٍ إن لم يكن به وله ينكسر عند حدود الفناء. والمنتهى إلى الرب ليس خبراً عن القيامة وحدها، بل بوصلة للحياة: ما دام إليه المنتهى، فإليه يجب أن تتجه البداية؛ وما دام الوقوف بين يديه خاتمة السعي، فلا ينبغي أن يُبدل السعي في طريقٍ يخجل صاحبه أن يلقاه به. من عرف المنتهى أعاد ترتيب اليوم؛ لأن قيمة الخطوة تُفهم من جهة الوجهة، وقيمة العمر تُفهم من المصير الذي يجري إليه.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۖ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾. بعد آية المنتهى ترد السورة أدق انفعالاتك وأكبر تحولات وجودك إلى الله. الضحكة التي انفرج بها ثغرك لم تخرج عن ملكه، والدمعة التي انحدرت ولم يفهمها أحد كانت تحت علمه. هو الذي خلق في الروح قابلية الفرح والحزن، ويجري أسبابهما بحكمته، وقد يجعل في بكاء اليوم غسلاً للقلب، وفي ضحك الغد جبراً لما انكسر. وهو أَمَاتَ وأَحْيَا؛ فالموت ليس قوةً شاردةً اقتحمت ملكه، والحياة ليست مصادفةً أضاءت ثم انطفأت بلا غاية. من عرف أن الله هو الذي أَمَاتَ وأَحْيَا لم يعد الموت عنده عدماً مطلقاً، بل انتقالاً بأمر الذي وهب البداية ويملك الإعادة.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۖ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾. يعود الإنسان المتكبر إلى أصله الصغير: نطفة لا يرى فيها الناظر ملامح الوجه، ولا طباع النفس، ولا قصة العمر، ثم تنمو بأمر الله حتى تصير إنساناً يجادل في بعثه! والذي أخرج هذا التعقيد الباهر من ذلك الأصل الضعيف قد تكفل بالنشأة الأخرى، وجاء التعبير ﴿عَلَيْهِ﴾ مؤذناً بوعده قضاءه على نفسه بحض فضله ومشيتته، فلا البعث احتمال فلسفي، ولا رجوع الإنسان أمنية نفسية، بل وعد الخالق الذي لا يعجزه ما بدأه. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾. ليس الغنى ما ازدحم في اليد، بل ما وضع الله في النفس من كفاية، وليس الفقير من قل ماله دائماً، بل من اتسعت حاجاته حتى التهمت قلبه. هو أغنى، فأعطى من فضله، وهو أقنى، فللك وأرضى وأبقى من النعم ما شاء. وما أكثر من يملك ولا يستغني، ويجمع ولا يشبع، ويحرس خزائنه كأنها سجنه؛ لأن الغنى الحقيقي رزق قلبي قبل أن يكون رقماً. وإذا كان الله هو المغني، فالركض إلى غيره بذل لا يزيد الروح إلا فقراً، والتعلق بالأسباب مع نسيان مسببها يحول النعمة نفسها إلى خوف.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ﴾. والشَّعْرَى نجمٌ عظَّمته طوائف وعبدته، فتجيء السورة التي افتتحت بالنجم إذا هوى لتعلن قرب نهايتها أن ألمع النجوم مريب لا رب، مخلوق لا خالق، آية لا إله. وهكذا تكتمل الدائرة: يقسم الله بالنجم لأنه خلقه، ثم ينزع عنه أوهام العبادة لأن له رباً. وما ينبغي أن يقودنا إليه جمال الكون هو معرفة الله، لا السقوط عند أجزاء الكون. وكلما ازداد النجم لمعاناً ازداد افتقاره إلى من أودع فيه النور.

ثم تمر السورة على مقابر الحضارات: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفة أهوى فغشاها ما غشى. بعد أن تحدثت عن الفرد وسعيه، تعرض مصائر الجماعات التي صنعت من القوة عقيدة، ومن الطغيان نظاماً، ومن الإهمال دليلاً على الأمان. عاد بقوتها، وثمود بمدائنها، وقوم نوح بطول إصرارهم، والمؤتفة بانقلاب فطرتها؛ كلهم صاروا خبراً بعد أن ظنوا أنهم مركز التاريخ. والسورة لا تسرد الآثار لتملأ الذاكرة، بل لتخلع الغرور من الحاضر؛ فكل حضارة تقرأ قصة الهالكين وتستثني نفسها بدأت تسير في طريقهم، وكل قوة لا ترى فوقها ميزان الله إنما تؤجل موعد انكشاف ضعفها.

ثم يقف القلب بين هذا التاريخ كله وبين نعم لا يستطيع إحصاءها: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾. الخطاب مفرد، لأن المرء يبدأ في قلب واحد، كما أن اليقين يبدأ فيه. بأي نعم ربك تشك؟ بالوحي الذي أخرجك من الظن؟ أم بالعقل الذي أودعه فيك؟ أم بالحياة التي منحك إياها؟ أم بالمغفرة التي فتح بابها؟ حتى الإنذار من الآئه، لأنه لا يتركك تمضي إلى الهاوية بلا صوت يوقظك. وحتى ذكر الأمم الهالكة رحمة بك، لتقرأ نهايتك الممكنة قبل أن تصير إليها.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ ﴿أَزَفَتِ الْآزِفَةُ﴾ ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾. هذا الرسول امتداد لقافلة المنذرين، وهذا القرآن ليس غريباً عن نداءات السماء الأولى، وإن كان خاتمها والمهيمن عليها. وقد أزفت الآزفة؛ اقتربت القيامة حتى جاء اسمها من قربها، لأن كل ما هو آت قريب، ولأن عمر الإنسان أقصر من أن يضع الآخرة في زاوية بعيدة. وليس لها من دون الله كاشفة؛ لا أحد يملك رفع شدتها، ولا تحديد وقتها، ولا حماية الإنسان منها إلا بإذن الله. وحين تسقط الأقنعة عند تلك الساعة، لن يبقى للاسم الذي صنعناه ولا للجاه الذي احتمينا به ولا للصنم الذي استندنا إليه سلطان.

ثم يجيء الاستفهام كصفعة على قلب يسمع هذا كله ثم يبقى متفرجاً: ﴿أَفَنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾. أهذا موضع العجب الساخِر؟ أهذه الآيات التي تكشف أصل الإنسان وسعيه ومنتهاه تُستقبل بالضحك؟ إن البكاء هنا ليس انهياراً عاطفياً، بل علامة فهم؛ فمن أدرك ثقل الأمانة، وسعة التقصير، وقرب اللقاء، رق قلبه. أما السمود فهو غفلة متعالية، وهو يرفع صاحبه رأسه عن الحق، وانشغال بالصوت حتى لا يسمع النداء. وقد يكون أشد ما يهدد الإنسان اليوم ليس إنكار الآخرة بلسانه، بل إحاطة نفسه بضجيج دائم يمنعه من تذكرها؛ ينتقل من مشهد إلى مشهد، ومن خير إلى خير، حتى لا يبقى في داخله صمت تستطيع الحقيقة أن تخاطبه فيه.

وعندئذ لا تمنح السورة عقل الإنسان فكرة أخرى يناقشها، بل تمنح جسده الأمر الذي يلخص الرحلة كلها: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَعَبُدُوا﴾. اسجدوا لله، لا للنجم، ولا للشعري، ولا للات والعزى، ولا للهوى، ولا للتمني، ولا للدنيا، ولا لصورة النفس في أعين الناس. اسجدوا للذي أوحى، وخلق، وأضحك وأبكى، وأمات وأحيا، وأغنى وأفنى، ووعد بالنشأة الأخرى، وإليه المنتهى. وكأنَّ السجود هو الجواب الوحيد اللائق بكل ما سبق؛ فحين

يثبت أن الوحي حق، وأن الأصنام أسماء، وأن الظن لا يغني، وأن السعي سيئ، وأن الجزاء أوفى، وأن المنتهى إلى الرب، لا يعود الوقوف معتداً بالنفس موقفاً معقولاً.

وهكذا تعيدنا خاتمة السورة إلى بدايتها في صورة أعمق: هناك في المطلع نجمٌ يهوي، وهنا في الختام مؤمنٌ يهوي ساجداً، غير أن النجم يهوي بأمر التسخير، والمؤمن يهوي باختيار المحبة واليقين. هناك ارتفع البصر إلى الأفق الأعلى، وهنا تخفض الجبهة إلى أدنى الأرض، وبينهما يدرك القلب أن أقرب طريقٍ إلى العلو يمر عبر السجود، وأن الإنسان لا يبلغ منزلته حين ينزع النجوم ارتفاعها، بل حين يعرف رب النجوم ويضع جبهته بين يديه.

إن سورة النجم رحلةٌ من الرؤية إلى المسؤولية، ومن الخبر السماوي إلى السعي الأرضي، ومن آيات الرب الكبرى عند سدرة المنتهى إلى آية الإنسان الصغرى وهو يتحرك في أيامه ثم يُعرض عليه سعيه. فلا قيمة لرؤيةٍ لا تغيّر الطريق، ولا معنى لحديث المعراج إذا بقيت الروح ملتصقةً بأصنام الأرض، ولا يكتمل الإيمان بجلال الوحي حتى يثمر سعيّاً يرضاه الله. لقد رأى الرسول ﷺ من آيات ربه الكبرى، ثم عاد إلى الأرض يحمل للإنسان ميزاناً بسيط الألفاظ عظيم التبعات: أنت مسؤول، وسعيك مرئي، وجزاؤك آتٍ، وربك هو المنتهى.

فيا من رفعتَ رأسك مع أول السورة تتأمل النجم، اخفض جبهتك عند آخرها لله؛ ويا من سافرت بقلبك إلى سدرة المنتهى، لا تنسَ أن لك على الأرض سعيّاً سيئاً؛ ويا من أدهشك قرب الوحي من محمد ﷺ، فتذكر أن الله قريبٌ من توبتك ودعائك وانكسارك؛ ويا من أيقظتك أخبار عادٍ وثمود، لا تجعلها حكاياتٍ عن موتى بعيدين، بل مرايا ترى فيها مصير القوة إذا انفصلت عن العبودية. واعلم أن الطريق، مهما طال، ينتهي إلى كلمة واحدة: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾؛ فإذا عرفت المنتهى، فلا تُضع البداية، وإذا عرفت أن سعيك سوف يُرى، فلا تحتقر خطوةً إلى الله، وإذا علمت أن الجزاء هو الأوفى، فلا تحزن على خيرٍ زرعته ولم تثمرته، وإذا سمعت الأمر الأخير: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾، فدع عنك ثقل العالم كله، واهو إلى الأرض ساجداً؛ فإن الجبهة حين تلامس التراب لله، تكون الروح قد بلغت أفقها الأعلى.



حين يهوي النجم وتسجد الروح

ها نحن نصل إلى آخر السورة، لكننا لا نخرج منها كما دخلناها؛ فقد دخلنا وأبصارنا معلقةٌ بنجمٍ يهوي في فضاء الليل، وخرجنا وجباهاً مدعوةً إلى أن تهوي على الأرض سجداً لله، وكأن بين المهيَّين سرَّ الرحلة كُلِّها. يهوي النجم لأنه مخلوقٌ مسخَّر لا يخرج عن المدار الذي رسمه الله له، ويسجد المؤمن لأنه عرف باختياره أن له رباً لا يستحق العبادة سواه؛ فذلك هوَّيُّ التسخير، وهذا هوَّيُّ المحبة والمعرفة، وبينهما يعبر الإنسان من الانبهار بالمخلوق إلى عبادة الخالق، ومن النظر إلى النور المعلق في السماء إلى طلب النور الذي ينزل على القلب من عند الله.

لقد بدأت السورة بالدفاع عن صدق الوحي، لأن الطريق إلى الله لا يمكن أن يُبنى على الظن، ولا أن ترسمه الأهواء المتقلبة؛ فإذا لم يعرف الإنسان من أين يتلقى حقيقة وجوده، عاش أسيراً لما تشتهي نفسه وما تمليه عليه بيئته وما تكرره أمامه الأصوات. ولذلك أقسم الله بالنجم أن صاحبه ﷺ ما ضلَّ في علمه وما غوى في قصده، وأن ما ينطق به ليس انبعاثاً من هوى النفس، بل وحيٌ يوحى. ومن هذه البداية الحاسمة تعلمنا أن أعظم النجاة ليست أن يمتلك المرء معلوماتٍ كثيرة، بل أن يعرف المصدر الذي يأخذ عنه معنى الحياة؛ فربما اتسعت المعارف حوله، وهو لا يزال تائهاً في السؤال الأول: من يخبرني لماذا جئت، وكيف أسير، وإلى أين أنتهي؟

ثم ارتفعت بنا السورة إلى مشاهد الوحي والرؤية وآيات المعراج الكبرى، لا لتتمتع الخيال بمتعة التحليق وحدها، بل لتعيد بناء اليقين في أعماقنا. رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام في الأفق الأعلى، ورآه نزلةً أخرى عند سدرة المنتهى، ورأى من آيات ربه الكبرى؛ لكن عظمة ما رأى لم تُخرجه من مقام العبودية، وقربه لم يجعله يتجاوز حدَّه، بل ظل بصره في غابة الصفاء والأدب: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾. وهنا أدركنا أن أرقى المعرفة هي التي تزيد صاحبها عبودية، وأن الكشف الذي يصنع الغرور حجاباً جديداً، وأن القرب من الله لا يُفاس بكثرة ما يقوله الإنسان عن مقامات نفسه، بل بما يحدث فيه من خشوع واستقامة وأدب.

ومن الأفق الأعلى هبطت بنا السورة إلى سوق الأسماء الأرضية: اللات والعزى ومناة، تلك الأجار التي لم يكن فيها من حقيقة الألوهية شيء، لكن الخيال البشري نفخ فيها من أوهامه حتى انخنت لها الجباه. ولم تكن السورة تحاكم أصنام الماضي وحدها، وإنما كانت تكشف القانون الذي تُصنع به الأصنام في كل زمان: اسمٌ يمنحه الناس لمعنى باطل، ثم تكرر يكسوه مهابة، ثم عادة تحرسه، ثم مصلحة تدافع عنه، حتى ينسى الجميع أنه لم يكن في البداية إلا اسماً سموه هم وآباؤهم، ما أنزل الله به من سلطان. وهكذا علمتنا أن تحرير الإنسان يبدأ من تحرير كلماته؛ أن يسأل عما وراء الأسماء الكبيرة، وأن يزن الموروث بميزان الوحي، وأن لا يسمح لشيوخ الفكرة أن يقوم مقام البرهان، ولا لرهبة المجتمع أن تطفئ سؤال الحقيقة.

وعند ذلك ظهر الخصم الخفي الذي كان يقف وراء الأصنام كلها: الهوى. فالمشرك لا يتبع الظن وحده، وإنما يتبع معه ما تهوى الأنفس، لأن الهوى إذا سبق المعرفة جعل العقل خادماً للرغبة، لا باحثاً عن الحقيقة. ولعل أخطر ما كشفت عنه السورة أن الإنسان لا يضل دائماً لأنه لم ير الطريق، بل قد يضل لأنه رأى طريقاً لا يناسب شهوته، فاختار أن يشكك في النور حتى يواصل السير في الظلام. وجاء الهدى من ربه، ولكنه أراد الحياة الدنيا وحدها، فصارت الدنيا مبلغ علمه، لا لأنه لم ير شيئاً وراءها فحسب، بل لأنه لم يرد أن يرى.

ثم وقفت السورة أمام أماني النفس وسألت سؤالها القاطع: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى؟﴾ فليس الوجود صفحة بيضاء يرسم عليها الهوى ما يجب ثم يطالب الحقيقة أن تصدقه، وليس الجزاء تابعاً لما يمتنى المرء لنفسه، ولا النجاة ميراثاً يؤخذ بلا عمل، ولا الشفاعة ملكاً للمخلوق يتصرف فيها بعيداً عن إذن الله ورضاه. لقد أعادت الآيات من عالم الأماني إلى عالم المسؤولية، ومن التعلل بالآخرين إلى مواجهة النفس، حتى بلغنا تلك القواعد التي كانت في صحف موسى وإبراهيم الذي وقى: ﴿أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾.

وهنا صار السعي هو الاسم الآخر للعمر؛ فما أيامنا في حقيقتها إلا خطوات نكتب بها جوابنا عن سؤال الوجود، وما الإنسان إلا ما تحركت إليه إرادته حين أتيح له الاختيار. قد يتكلم طويلاً عن الحق، ولكن سعيه يكشف أي حق أحب، وقد يرفع شعارات

الرحمة، ولكن معاملته للضعفاء تكتب سريره، وقد يظن أنه مجهول بين الناس، بينما تُحصى خطواته في ميزان لا ينسى. وسوف يرى السعي، ستفتح خزائن الأيام، وتخرج منها الأعمال التي حسبنا أن الزمن ابتلعها، والدموع التي لم يرها أحد، والمقاومات الخفية التي لم يصفق لها جمهور، والتنازلات التي قدمناها لهوى النفس، والخطوات التي مشيناها نحو الله حين كان الطريق موحشاً. كل ذلك سوف يرى، ثم يُجزى الإنسان الجزاء الأوفى؛ لا جزاءً تقريبيّاً ناقصاً، بل جزاء العليم الذي عرف النية قبل الحركة، والرحيم الذي يضاعف الحسنة، والعاقل الذي لا يظلم مثقال ذرة.

غير أن السورة لم تجعل الحديث عن السعي باباً للاغترار بالنفس، بل أتبعته بما يعيد الإنسان إلى أصله وضعفه: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾. فالذي يسعى لا يملك أن يشهد لنفسه بالوصول، والذي يعمل لا يعرف كل ما تسلكه إلى عمله من حظوظ النفس، والذي يراه الناس صالحاً قد تكون له خبايا لا يعلمها إلا الله، كما أن المغمور الذي لم تلتفت إليه العيون قد يكون في قلبه من التقوى ما يرفع ذكره في السماء. لذلك يظل المؤمن عاملاً لا مدلاً، راجياً لا مغترّاً، يخاف من آفة عمله أكثر مما يخاف من ضياع مدح الناس له، ويعلم أن سعة المغفرة هي التي تسنده حين يتعثّر، لا دعوى الكمال التي يصنعها لنفسه.

ثم جاءت الآية التي بدت كأنها البحر الذي تصب فيه أنهار السورة جميعاً: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾. تنتهي إليه رحلة الوحي لأنها بدأت منه، وتنتهي إليه رحلة الإنسان لأنه خلقه، وتنتهي إليه ضحكاته وأحزانه، وحياته وموته، وفقره وغناه، وسعيه وجزاؤه. وكل ما نظنه نهاية قبل الله ليس إلا محطة في الطريق؛ فالموت ليس المنتهى، وذهاب الاسم من ذاكرة الناس ليس المنتهى، وانهيار الحضارة ليس المنتهى، وانطفاء النجم ليس المنتهى. المنتهى إلى الله وحده؛ حيث تنكشف المعاني التي بقيت ناقصة في الدنيا، ويعرف المظلوم أن دمعته لم تذهب، ويرى المحسن ثمرةً ربما مات قبل أن تثبت في الأرض، ويدرك الإنسان أن كل لحظة عاشها كانت تتجه به، في صمت، إلى هذا اللقاء.

ولأن إلى المنتهى، فهو الذي أضحك وأبكى؛ فما من ابتسامة أزهرت في أرواحنا إلا وعلم منبتها، وما من دمعة أخفيناها عن الخلق إلا وقعت في علمه قبل أن تقع على خدودنا. وهو الذي أمات وأحيا؛ فالموت ليس يداً غريبةً امتدت إلى حياتنا بعيداً عن سلطانه،

وإنما هو قدرٌ يجريه الذي يملك الإعادة كما ملك البدء. وهو الذي أغنى وأقنى، فلا مالٌ استقر في يدٍ بغير إذنه، ولا غنى استقر في قلبٍ إلا بفضلِهِ. وهو ربُّ الشعرى، فالنجم الذي أبهر الأبصار حتى عبدته أقوامٌ ليس إلا عبداً في ملكه، يضيء بما أودع الله فيه، ويسير حيث قدر، وبأقل حين يشاء.

ومرت أمامنا عادٌ وثمود وقوم نوح والمؤتفكة؛ حضاراتٌ ظنت أن قوتها قد انتزعت لها مكاناً خارج ميزان الله، فإذا هي آثارٌ تروي للأجيال سيرة الغرور حين يبلغ نهايته. كانوا يوماً حاضراً يملأ الأبصار، ثم صاروا ماضياً تلتوه الألسن، وما بين الحضور والغياب إلا أن استنفد الطغيان أجله وجاء وعد الله. وفي أخبارهم رأينا أن القوة التي لا تسجد لله لا تملك أن تحمي نفسها، وأن العمران قد يعلو بينما الإنسان في داخله ينحدر، وأن الحضارة لا تسقط فقط حين تنهار جدرانها، بل يبدأ سقوطها يوم تفقد ميزان الخير والشر، وتستبدل شكر النعمة بعبادة الذات.

ثم فاجأتنا السورة بقرب الآخرة: ﴿أَرْفَتِ الْآزِفَةَ﴾. لم تتركها زمناً غامضاً في آخر التاريخ، بل قربتها من القلب حتى كأن وقعها يُسمع وراء جدار اللحظة. وكل آتٍ قريب، وكل إنسان إذا مات قامت قيامته الصغرى وانقطع سعيه، وصار ما كان يسميه مستقبلاً حاضراً لا يستطيع تأجيله. وليس لها من دون الله كاشفة، فلا قوة تردها، ولا حيلة تحوها، ولا اسمٌ أرضي يحمي صاحبه حين تتساقط الأسماء ولا يبقى إلا حقيقة العمل.

لهذا عابت السورة من يسمع هذا الحديث ثم يضحك ولا يبكي، ويسمد في غفلته كأن الوحي قصةٌ لا تعنيه. والبكاء الذي تريده الآيات ليس حزناً يطفئ الحياة، وإنما يقظةٌ تغسل القلب من قسوته؛ هو بكاء من عرف قدر النعمة نخاف أن يكفرها، وقدر العمر نخاف أن يبدده، وسعة المغفرة فاستحيا أن يصرَّ على خطيئته، وقرب اللقاء فاشتاق أن يصلح ما بقي. أما الضحك المستنكر فهو ضحك الغافل الذي يستخدم اللهو ليهرب من السؤال، ويملاً الوقت بالأصوات حتى لا يسمع وقع خطاه وهي تمضي به إلى المنتهى.

وفي اللحظة التي بلغت فيها المعرفة ذروتها، لم تقل السورة: ففكروا فحسب، ولا: فتعجبوا، ولا: فكتبوا ما علمتم؛ بل قالت: ﴿فَاتَّبِعُوا اللَّهَ وَاعْبُدُوا﴾. لأن الحقيقة إذا بلغت القلب ولم تحرك الجبهة، بقي بينها وبين الروح حاجزٌ من الكبر، ولأن السجود ليس حركةً في

آخر الصلاة وحدها، بل إعلانٌ كامل عن سقوط الأصنام الداخلية: يسقط وهم الاستغناء، وتسقط تزكية النفس، ويسقط سلطان الهوى، ويسقط الخوف من الخلق، ويبقى العبد في أشرف مواضعه؛ قريباً من ربه لأنه اعترف بفقره إليه.

وهكذا تلتقي بداية السورة بخاتمتها: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ هناك، ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ هنا. يهوي النجم في مداره، وتهوي الجبهة في محرابها، لكن الروح في سجودها ترتفع إلى أفقٍ لا تبلغه النجوم. وقد رأى النبي ﷺ من آيات ربه الكبرى عند سدرة المنتهى، أما نحن فقد فُتح لنا طريقٌ نفترب به من الله في كل سجدة صادقة؛ لا نبليح مقامه ﷺ، ولكننا نقتبس من هديه أن العلو الحقيقي يبدأ من العبودية، وأن القلب لا يعبر إلى الله بما يدعيه لنفسه، بل بما يتخلى عنه من كبريائه.

فيا أيها السائر الذي أرهقته الطرق، ليست المشكلة دائماً أنك لم تبذل جهداً، بل قد تكون أنك نسيت جهة المنتهى؛ فأعد ترتيب سعيك على ضوء هذه الآية: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾. لا تحزن إن خفي خريك عن الناس، فسعيك سوف يرى، ولا تيأس إن أثقلت عثرتك، فريك واسع المغفرة، ولا تغتر إن مدحوك، فهو أعلم بمن اتقى، ولا تنكئ على أمانة لم تصدقها خطوة، فليس للإنسان إلا ما سعى، ولا ترفع نجماً من نجوم الأرض فوق منزلته، فإن الله وحده رب الشعرى ورب كل ما أضاء وأفل.

وإذا أغلقت صفحات هذه الرحلة، فلا تغلق معها نداء السورة؛ دعه يتبعك إلى خلوتك، ويقف إلى جوارك في موضع الاختيار، ويسألك كلما هممت بخطوة: إلى أي منتهى يقودك هذا السعي؟ فإذا ضاقت بك الدنيا، فتذكر أن الله الآخرة والأولى، وإذا بكى قلبك، فتذكر أنه هو أضحك وأبكى، وإذا خفت الموت، فتذكر أنه هو أمات وأحيا وأن عليه النشأة الأخرى، وإذا أحاطت بك أسماء الباطل، فتذكر أنها أسماء لا سلطان لها أمام سلطان الحق.

ثم إذا لم تجد بعد ذلك كلاماً يساوي ما امتلأ به قلبك، فلا تبحث عن كلام؛ توضأ، واستقبل القبلة، ودع جسدك يقول ما عجز عنه لسانك، واهو إلى الأرض ساجداً لله. عندها ستفهم خاتمة سورة النجم لا بوصفها آيةً قرأتها، بل حقيقة دخلتها؛ وستعلم أن النجم حين يهوي يغيب عن العين، أما الروح حين تسجد لله فإنها تشرق